فصول ملخصة من الفلسفة الألمانية

١٠ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فلسفة نيتشه Nietysche

١٨٤٤ — ١٩٠٠

للأستاذ خليل هنداوى

« عملت على إيجاز كتاب « فلسفة نيتشه » للأستاذ (هنرى ليشتنبرجر) »
(خ . ه)

— ١ —

نيتشه هو ممثل الفكرة الألمانية الجبارة فى تاريخها الحديث كما كان « بسمارك » رجلها الحديدى فى السياسة . فهما وإن اختلفت منازعهما وتباينت الحقول التى غرسا فيها ، فما غرس الاثنان إلا بذور القوة والارادة فى شعب تلقحت دماؤه وأفكاره بعصل القوة والارادة .

هنالك كلمة تسطرها براعة الفلاسفة والنقاد وتشغل مكاناً من العصر الحديث . هذه الكلمة هى كلمة « الانحطاط الاجتماعى » وفلاسفة الاجتماع لا يرون فى هذا الانحطاط شيئاً سياسياً يمكن اصلاح الفاسد فيه ، أو اعوجاجاً يمكن تقويمه ، بل هو داء عضال قد تأصل فى جسم البشرية وتمشى فى لحمها وعظمها ودمها فهو لا يذهب إلا بذهابها ولا يتلاشى إلا بانقراضها . ومن هؤلاء المفالين فى تشاؤمهم « فردريك نيتشه » الذى نازل العالم كله وحده ، وهدم العقائد والتقاليد مستمداً من عقله وقلبه عقائد وتقاليد أسمى منها .

— ٢ —

الشخصية فى نيتشه

إن من الجور أن ننظر فيما ترك نيتشه من تعاليمه « كمذهب محدود » لأن الرجل لم يعمل على أن يؤلف مدرسة فلسفية ، ولم يكن لمثل عقله الوثاب أن يقيد نفسه بقيود ضيقة ؛ وإنما هو الثورة المتدفقة التى لا تعرف نظاماً ولا انتظاما يملك عليها الاضطراب فى اندلاعها ، ويملك على عقله التناقض حتى فى الفكرة الواحدة . وإنما الأجدر بنا أن ندرس من فلسفته « الناحية الفردية والشخصية » وهى أبرز نواحى فلسفته جلاء وقوة ، لأنها ابنة طبع خاص ، وهوى صادق مستقيم

إن فلسفة « نيتشه » فلسفة تتجلى فيها « الذاتية » المنقطعة عن الناس. « ماذا يقول لك شعورك ؟ يجب أن تكون كما أنت! فينبغى للانسان أن يعرف نفسه وجسده وحواسه ، وأن يمشى بحياته كما تريد ذاته وشخصيته ، وأن يغتنم من الفرص أحسن ما يغتنم ، ومن المصادفات ما يحقق مطامعه ، ويقرب غايته . وأن يصحح – بقدر ما يستطيع – هذه الطبيعة بالفن ، ليتسنى له أن يظهر ذاته ويبعث حياته . كلٌ يغترف من هذا المذهب بحسب غريزته وطبيعته ؛ إذ لا قواعد ولا أساليب محدودة تصنع لكل انسان نفسه . فمذهب « عدم المساواة » بين الناس هو من مبادىء نيتشه . إذ ينبغى لكل إنسان أن يخلق بنفسه حقيقته وهدفه وفضيلته ؛ فما كان صالحاً للواحد قد يكون ضاراً للآخر. وما كان ضاراً للواحد يكون صالحاً للآخر . وكل ما يستطيع المؤرخ أن يصنعه هو أن يقص تاريخ نفسه ، والطريقة التى اكتشف بها نفسه ، والايمان الذى وجد به راحة نفسه . وأن يكون المثال الذى يقتدى به معاصروه للوصول إلى عوالم أنفسهم . . . ولكنه ليس له بعد هذا كله من مذهب أو من طريق . لأنه لا يود أن يكون راعى قطيع خاضع ذليل

(يقول « زرادشت » لرفاقه الامناء : « إننى وحدى أذهب يارفاق ... وأنتم وحدكم اذهبوا ... أنا أريد ذلك

فى الحقيقة أعطيكم هذه النصيحة . ابتعدوا عنى كثيراً ، واحموا أنفسكم من زرادشت ... وخير لكم أن تخجلوا منه

أنتم تقولون : إنكم مؤمنون به ولكن ماذا يهمه إيمانكم ؟ أنتم المؤمنون به ، ولكن ماذا يهمه كل المؤمنين ؟

أنتم لم تفتشوا بعد عن أنفسكم ، ولذلك وجدتمونى . هكذا يقول كل المؤمنين ، ولهذا أرى أن كل إيمان هو شىء ضئيل . والآن آمركم بأن تفقدونى لتجدوا أنفسكم ، وعندما تكفرون بى أعود اليكم فى تلك الساعة ... »)

يتميز نيتشه من أصحاب المذاهب الفلسفية بأنه لا يخاطب العقل وحده كما يفعلون ، بل يخاطب الانسان بأسره عقلا وجسداً . فما التفكير عنده والعاطفة إلا أهواء تعبث بها قوة خفية كامنة تصرفها كما تشاء إلى أين تشاء . « إن وراء أهوائك وعواطفك – ياأخى – سيداً «قادراً» وعاقلاً مجهولاً يسمى «الذات» يسكن جسدك ، وإنما هو جسدك ، فالجسد بما يضم من أعضاء وبما

يحتوي على إرادة القوة ، ذا ما يدعوه نيتشه « العقل الكبير للانسان » وان العقل الحقيقي ـ وحده ـ ناقص سريع العطب . تستعين به الذات على بسط قوتها ونفوذها . فاذا أراد انسان أن يؤثر في آخر فبهذه الذات الخفية وحدها يمكنه أن يؤثر . وكل شيء سواها باطل . ومن اللغو أن تعرض مذهباً فلسفياً بالطرق المنطقية ، أو تحدد العقل بالمقاييس التي اخترعها العقل . وإنما هذه الاحكام المنظمة « مجموعة التقاليد المقدسة » محددة الخير والشر ، والجميل والقبيح ، هي أحكام موضوعة لا ظل لها من حقيقة ، ولكن الانسان هو واضعها ومقدسها . وخيرهم من ساعد على نشر « ذاته » وشخصيته . فالكتاب ـ مثلا ـ ان هو إلا فعل يقوم بقيام شخصية صاحبه ، وبكيانه الكامل . فهو ليس بمفكر فحسب بل هو نبي ... لا يقول للناس « أنا أحمل اليكم الحقيقة العالمية غير المتعلقة بذاتي . ولكنه يقول « ها أنا ذا في من إيمان وحقيقة وخطأ ، كما أنا . أقول (نعم) للكون ، لكل أفراحه وآلامه . فانظروا إن كنتم تجدون أيضاً سعادتكم في هذه الآراء التي وجدت فيها سعادتي » ، وبينا يروح غيره من الفلاسفة متباهين « بانسلاخهم عن شخصيتهم نرى نيتشه يجعل من شخصيته مدار فلسفته .. فلسفته في الحقيقة هي تاريخ نفسه . وزرادشت النبي الذي كتب عنه نيتشه بلهجة شعرية مؤثرة هو ذات نيتشه بما يجول في ذاته من رغائب وآمال وأحلام ومن لم يفهم شخصيته لا يفهم فلسفته

— ٣ —

صفحة من حياته الأولى

ولد نيتشه عام ١٨٤٤ من أسرة يعتقد بأنها أسرة بولونية قديمة ألجأها إلى ألمانيا ما ألجأها . نراه في حداثته مثال السيطرة والاعتماد على الذات وقهر الآلام الجسدية . وقد كان كثير الوفاء والاحترام لأصدقائه برغم ميله الطبيعي إلى العزلة ، صارماً في معاملته . لا يميل إلا إلى من يلائم هواه ويوافق مزاجه ولا ينفر إلا ممن طغت الرداءة والشراسة على خلقه . صارم في حديثه ، جاد في مزحه . لا يهوى المزح الكاذب مهما كان عنصره . لأن خروج الرجل عن طبيعته في الحياة الخاصة يخرجه عنها ما يخرجه في الحياة العامة . لا يطيب له مجلس العوام ولا الدخول في حلقاتهم . وإنما هو في حياته كما تمثله لنا كتاباته إرادة فولاذية وسيطرة بعيدة . وكأنه جُبل من طينة غير الطينة البشرية . لا يهوى الضعف ولا الاستكانة ولا يميل إلى الاستسلام . ولعل الكاتب الدانمركي « ابسن » قد رسم شخصية نيتشه في روايته التمثيلية « الراعي براند » الذي كان رجل كل شيء أو لا شيء . يمشي في طريقه لا يصده شيء ولا يقفه حائل . لا يشفق على نفسه ولا على غيره . يضحي ـ بدون وجل ـ بسعادته في سبيل تتميم إرادته ؛ يمشي ولا يتسرب اليه الضعف ، دامي القدم ، محطم القلب . مخترقا سبيله ، بطلاً أبسل في كل ما يخترق . ولا يزال هذا دأبه حتى يريحه الجنون ، وترحمه المنون » مثل نيتشه مثل هذا الراعي رجل كل شيء أو رجل لا شيء . يذهب بارادته لا يصده صادٌ ولا يمنعه مانع . وقد تكون هذه البطولة ـ عند نيتشه ـ أحد عوامل سروره . كما يكون الاستشهاد عند من يقضي في سبيل وطنه . على أن هنالك « نفوساً شاذة » في هذا المجتمع ، ممن يقدر لها أن تحارب التعالم وهي تعلم أن في هذه الحرب شقاءها وبلاءها ، تراها مضطرة بطبيعة حالها إلى أن تكون ذات قلب شديد وارادة فولاذية ، تستعين بها على اقتحام المصاعب ومثل هذه البطولة بطولة المجاهد الذي تتصلب إرادته ، وتتحجر عزيمته

وهو ـ خلال ذلك ـ مفتقر إلى صداقة تسعفه وتساعده ، ومن عسى يتخذ صديقاً من بين هذه « المخاليق الناقصة » ولكنه اتخذ أصدقاء يقبل بكمالهم ويؤمن بمثلهم ويغضي طرفه عن نقصهم ، وقد صور في مطلع حياته بعض صور أصدقائه تامة كاملة كأنها المثل الأعلى ، وبهذا وجد في « شوبنهاور » أسمى مثل للفلسفة . وفي « ريشارد فاجنر » أسمى مثل للفن . وإذا هو وجد في صحبة هؤلاء راحة نفسية فانه وجد في نهاية هذه الصحبة ألماً طالما أمضه وعذبه . ومبعث هذا الألم أن الفيلسوف ظل ساعياً دائباً وراء الانسان الكامل الذي يمثله له مثله الأعلى . فكان ـ لذلك ـ في نزاع مستمر مع نفسه ، وقد كلفته هذه الصداقة كثيراً ، لأن مثله الأعلى يقضي عليه بأن يضحي بها . فجرب كثيراً أن يغض الطرف عن نقص صديقيه ، وألا ينظر فيهما إلا مثلاً أعلى للكمال الانساني ، ولكن إرادته غلبت في النهاية على الصداقة . فتذوق من الصداقة مرارتها كما تذوق حلاوتها . . . وهكذا آب إلى عزلته لأن طبيعته تدعوه اليها

(يتبع)

خليل هنداوي